مَسْلَمَة بْن عَبْدِ المَلِك بْن مَرْوَان

فاتح شطر الأنضول ومحاصر القُسْطَنْطِينِية

بقلم اللواء الركن محمود شيت خطاب

٣ ــ توطيد الأمن الداخليّ

أ ــ القضاء على حركة شَوْذب الخارجيّ :

في سنة مئة الهجرية (٧١٨ م) ، خرج شَوْذَب الخارجيّ ، وهو بِسْطام من بني (يَشْكُر) (١) في (جُوْخي) (٢) ، وكان في ثمانين رجلاً .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عامله بالكوفة ، ألاّ يُحَرّكهم حتى يُسْفِكوا دماء ويُفسدوا في الأرض ، فان فعلوا وجّه إليهم رجلاً صليباً حازماً في جُند .

وبعث عبدُ الحميد والي الكوفة محمد بن جَرير بن عبدالله البَجَلِيّ (٣) في ألفين ، وأمره بما كتب عمر بن عبدالعزيز إليه ، كما كتب عمر إلى بِسْطام الخارجيّ ، يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر إلى بِسْطام وقد قدم عليه محمد ابن جَرير ، فقام بأزائه لا يتحرك .

وكان في كتاب عمر بن عبدالعزيز إلى بِسْطام : « بلغني أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك مني ، فهلمّ إليّ أُناظرك ، فان كان الحق بأيدينا ، دخلتَ فيما دخل الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك » .

وكتب بِسْطام إلى عمر : « قد أنصفتَ ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

---

(١) هو يشكر بن بكر بن وائل ، انظر التفاصيل في جمهرة أنساب العرب (٣٠٨) .

(٢) جوخى : وردت في معجم البلدان (٣ / ١٦١) : جوخا : اسم نهر عليه كورة واسعة في سواد بغداد ، ولم تكن ببغداد مثل كورة جوخا .

(٣) انظر سيرة والده : جرير بن عبدالله البجلي في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ – ٣٧١) .

ووصل الرّجلان إلى عمـــر ، وناظراه فاقتنعا بوجهة نظـــره (١) .

ومات عمر بن عبد العزيز رضى اللهعنه سنة إحدى ومئة الهجرية (٢)(٧١٩م) ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرّض إليهم ولا يتعرّضون اليه ، كل منهم ينتظر عودة الرُّسل من عند عمربن عبدالعزيز ، فتوفي عمر والأمر على ذلك (٣) .

وتولىّ يزيد بن عبدالملك بن مروان الخلافة بعهد من اخيه سليمان بعد عمر ابن عبد العزيز (٤) ، فأحب عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أمير الكوفة أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك ،فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذب .

ولما رأى الخوارج محمداً يستعدّ للحرب ، قالوا : «ما فعل هؤلاء هذا إلاّ وقد مات الرجل الصالح » يريدون عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه .

ونشب القتال بين الطرفين ، فأُصيب من الخوارج نفر ، وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا ، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة ، وتبعهم الخوارج حتى بلغوا الكوفة ، ثم رجعوا إلى مكانهم .

ووجه يزيد بن عبدالملك تميم بن الحُباب في ألفين ، فحاربه الخوارج وقتلوا أصحابه ، ولجأ فلول جيشه إلى الكوفة وإلى يزيد بن عبدالملك هاربين .

وأرسل يزيد قوّة بقيادة نَجْدَة بن الحَكَم الأزدِيّ فقتلوه وهزموا أصحابه ، فوّجه يزيدُ السَجّاح (٥) بن وَداع في ألفين ، فقتلوه وهزموا أصحابه أيضاً .

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبدالملك الكوفة ، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شوذب ، فأرسل إليه مسلمة سعيدَ بن عمرو الحَرَشيّ ، وكان فارساً في عشرة الآف ، وأتاه وهو بمكانه ، فرأى شَوْذب وأصحابه ما لا قِبَل لهم به ، فقال لأصحابه : « مَن كان يريد الشهادة فقد جاءَته ، ومَن كان يريد الدنيا فقد

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٥٥) وابن الأثير (٥ / ٤٥ – ٤٨) .
(٢) الطبري (٦/٥٦٥) وابن الأثير (٥/٥٨) والعبر (١/١٢٠) وشذرات الذهب (١/١١٩) .
(٣) ابن الأثير (٥ / ٤٨) .
(٤) ابن الأثير (٥ / ٦٧) .
(٥) في الطبري (٦ / ٥٧٦) : الشحاج ، وفي ابن الأثير (٥ / ٦٩) : السجاح .

ذهبت». وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا ، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً، حتى خاف سعيد الفضيحة ، فوبّخ أصحابه وقال : «من هذه الشرذمة لا أبَ لكم تفرّون ! ياأهل الشام ! يوماً كأيامكم ! » ، وحمل أصحاب سعيد على الخوارج ، فطحنوهم طحناً ، وقتلوا بسطاماً — وهو شوذب — وأصحابه (١) .

وهكذا قضى مسلمة على حركة من حركات الخوارج ، استعصت على الآخرين ، وكان يمكن أن تتطوّر فتصبح خطراً داهماً يهدّد أمن الدولة واستقرارها .

ب . القضاء على فتنة يزيد بن المُهَلّب :

في سنة مئة الهجرية (٧١٨ م) ، كتب عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى عَدِيّ بن أرْطَاة والي البصرة لعمر (٢) ، يأمره بانفاذ يزيد بن المُهَلّب إلى دمشق موثقاً . وكان عمر قد كتب إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويُقْبِل إليه فاستخلف مَخْلَداً ابنه وقدم من (خُراسان) (٣) ونزل (واسِطاً) (٤) ، ثم ركب السُّفن يريد (البَصْرَة) ، فبعث عَدِيّ بن أبي أرْطَاة موسى ابن الوَجِيه الحِمْيَرِيّ ، فلحقه في نهر (مَعْقِل) (٥) عند الجسر ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبدالعزيز في دمشق .

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٧٥ — ٥٧٨) وابن الأثير (٥ / ٦٨ — ٧٠) .

(٢) جمهرة انساب العرب (٢٥٦) .

(٣) خراسان : بلاد واسعة يتاخمها العراق من الغرب وافغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد من الشمال الى اقصى تخوم ايران . من أمهات مدنها : نيسابور وهراة ومرو وبلخ ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٤٥ — ١٦٠) ومعجم البلدان (٣ / ٤٠٧) .

(٤) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي ، وسميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٣٧٨ — ٣٨٧) ، وقد اطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة الكوت على نهر دجلة .

(٥) نهر معقل : منسوب الى معقل بن يسار المزني ، صحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٣٤٥ — ٣٤٦) ، وفيه : ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر ابا موسى الأشعري أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني ، فنسب اليه .

ودعا به عمر ، وكان يبغض يزيـــد وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أُحب مثلهم » ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : « إنه مُراء» ، فلما ولي عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء . ولما دعاعمرُ يزيد ، سأله عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبدالملك ، فقال : « كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبتُ إلى سليمان لأسمعَ الناس به ، وقد علمتُ أنّ سليمان لم يكن ليأخذني به ! » فقال عمر : « لاأجد في أمرك إلاّ حبسك ، فاتّقِ الله وأدّ ما قِبلك ، فانها حقوق المسلمين ولا يسعني تركُها » .

وحبسه بحصن (حلب) ، وبعث إلى الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ فسرحه إلى (خُراسان) أميراً عليها ، فبقي يزيد في محبسه حتى بلغه مرض عمر (١) .

ولما اشتدّ مرض عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، خاف يزيد بن المهلّب من يزيد بن عبدالملك (٢) ، فأرسل إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب من السجن ، فأعدّوا إبلاً له وخيلا . وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، وبعث إلى عامل (حلب) مالاً وإلى الحرس الذين يحفظونه وقال : «إن أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء ، وإن ولي يزيد بن عبدالملك يسفك دمي » ، فأخرجوه ، فهرب إلى المكان الذي واعد أصحابه فيه ، وركب هناك الدّواب وقصد (البصْرة) . وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز كتاباً يقول فيه : « إني والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شرّ قتلة » ، فورد الكتاب وبه رمق ، فقال : « اللهمّ إن كان يريد بالمسلمين سوءاً فألْحِقْه به وهِضْهُ فقد هاضني » ، وكان هروب يزيد ابن المهلب سنة إحدى ومئة الهجرية (٣) (٧١٩ م) .

— أقول : ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم وعليه ضاحية (المعقل) التي هي من ضواحي البصرة حالياً في شمالي البصرة وبالقرب منها ، وهي معروفة جداً في الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون خاصة في الشتاء ، وفيها مناظر خلابة جميلة .

(١) الطبري (٦/٥٥٦–٥٥٨) وابن الأثير (٥/٤٨–٥٠) وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٣١) .

(٢) كانت بين اليزيدين عداوة شخصية قبل ان يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، وقد توعد كل منهما صاحبه ، انظر ابن الأثير (٥ / ٥٧) .

(٣) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٦٤ – ٥٦٥) وابن الأثير (٥ / ٥٧–٥٨) وابن خلدون (٣ / ١٦٦) .

وكتب يزيد بن عبدالملك بعد توليه إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة و إلى عَديّ بن أَرْطَاة عامله على البصرة يأمرهما بالتحرّز من يزيد ويعرفهما هربه ، وأمر عَدِياً أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلّب ، فأخذهم وحبسهم .

وأقبل يزيد حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة) (١) ، وبعث عبدالحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن مُساحِق العامِرِيّ القُرَشِيّ — عامر بني لؤيّ ، فساروا حتى نزلوا (العُذَيْب) (٢) . ومرّ يزيد قريباً منهم ، فلم يقدموا عليه . ومضى يزيد نحو (البصرة) وقد جمع عَديّ بن أرطاة اهل البصرة وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة المُغِيرة بن عبدالله بن أبي عَقِيل الثقَفِيّ .

وبعث عَدِيّ على كل خمس من اخماس البصرة رجلاً : خُمس الأزْد ، وخمس تَمِيْم ، وخمس بَكْر بن وائل ، وخمس عبد القَيْس ، وعلى خمس العالية من قُريش وكنانة والأزد وبَجيْلة وخَثْعَم وقيس عَيْلان كلها ومُزَيْنَة ، فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلاّ تنحوا له عن طريقه حتى نزل داره .

واختلف إلى يزيد الناس ، فأرسل إلى عَدِيّ : « أن ابعث إلي إخوتي وإني أُصالحك على البصرة وأخليك وإياها حتى آخذ لنفسي من يزيد ما أُحبّ » ، فلم يقبل منه .

وسار حُمَيْدْ بن عبدالملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبدالملك ، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ بأمان يزيد بن المهلّب وأهله.

وأخذ يزيد بن المهلّب يُعْطي من أتاه قطع الذهب والفضة ، فمال الناس إليه ، وكان عَدِيّ لا يعْطي إلاّ دِرْهَمَيْن درهمين ويقول : «لا يَحِلّ لي أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلاّ بأمر يزيد بن عبدالملك ، ولكن تَبَلّغوا بهذه حتى يأتي الأمر بذلك » ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

---

(٤) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥/٧)

(٥) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣١/٦) ، والمغيثة منزل في طريق مكة بعد العذيب نحو مكة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ١٠٦) .

أظُنُّ رجال الدرهمين تقودهم إلى الموت آجال لهم ومَصَـــارع
وأكيَسُهم مَن قرّ في قعر بيته وأيقنَ أنّ الموتَ لا بُدّ واقـــعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عديّ ، فنزلوا (المِرْبَد) (١) ، فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يقال له : دارِس . فحمل عليهم ، فهزمهم .

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له ، حتى نزل جبانة بني يَشْكر وهي النصف فيما بينه وبين قصر الامارة في البصرة ، فلقيه قيس وتميم وأهل الشّام واقتتلوا هنيهة ، ثم حمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا . وتبعهم ابن المهلب حتى دنا من القصر ، فخرج إليهم عَديّ بنفسه ، ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا فيه خسائر كبيرة .

وجاء يزيد بن المهلّب حتى نزل داراً إلى جنب القصر ، وأتى بالسلالم وفتح القصر . وأُتي بعَديّ بن أرطاة فحبسه وقال له : « لو لا حبسك إخوتي لما حبستك » .

فلما ظهر يزيد ، هرب رءوس أهل البصرة من تميم وقيس وغيرهما ، فلحقوا بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشام . وخرج المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ نحو الشام ، فلقي خالداً القَسْرِيّ وعمرو بن يزيد الحَكَمِيّ ومعهما حُمَيْد بن عبد الملك بن المهلّب قد أقبلوا بأمان يزيد بن المهلّب وكل شيء أراده ، فسألاه عن الخبر فخلا بهما سراً من حُمَيْد وأخبرهما : بأن يزيد بن المهلّب قد ظهر على البصرة ، وقتل القتلى ، وحبس عَدِياً ، فارجعا ؛ فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما

وأصبح الموقف خطيراً للغاية ، فأرسل يزيد بن عبدالملك إلى الكوفة شيئاً من المال ومَنَّى أهلَها الزيادة ، وجهز أخاه مسلمة بن عبدالملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سَبعين ألف مقاتل من أهل الشام وجزيرة ابن عمر ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا إلى العراق . وقدما الكوفة ونزلا (النُّخَيْلة) (٢)

(١) المربد : مربد البصرة من اشهر محالها ، وكان يكون فيه سوق الابل قديماً ، ثم صار محلةعظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، انظر التفصيل في معجم البلدان (٨ / ١١ – ١٣) .

(٢) النخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، نظر التفاصيل في معجم البلدان (٨ / ٢٧٦ – ٢٧٧) .

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك ، فبلغ ابن المهلّب ، فخطب الناس يشجّعهم ويهوّن من أمر أهل الشام . وكان الحسن البصريّ يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناك والياً ومُولّى عليك ، فما ينبغي لك ذلك ! » ، فوثب أصحابه وأخذوا بفمه وأجلسوه ، وكان النَضر ابن أنس ابن مالك يثبّط أهل البصرة كما يثبّطهم الحسنُ البصريّ منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن .

وسار يزيد من البصرة ، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب ، وأتى (واسِطاً) فلما نزل (واسِطاً) أقـام بها أياماً وخرجت سنة إحـدى ومئة الهجرية . (١)

ودخلت سنةاثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠م) ، فسار يزيد من (واسط) واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل معـه بيت المال والأسرى ، وسار على فم (النيل) (٢) حتى نزل (العَقْر) (٣) . وقدّم أخاه عبـد الملك بن المهلّب نحو الكوفة ، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبدالملك في (سُورَا) (٤) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، كانت الجولة الأولى منه لآل المهلب ، ولكن تغيرت المعركة لصالح العباس بن الوليد ، فانكشف جيش ابن المهلب ، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلّب. وأقبل مسلمة يسير على شاطئ الفرات الى (الأنْبار) (٥) ، فعقد عليها الجسر وعَبر ، ثم سار حتى نزل على ابن المهلّب .

وأتى الى ابن المهلّب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور ، فقسّمهم أقساماً وجعل على كل قسم منهم قائداً ، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربية الأزْد ومَذْحِج وأسَد وكِنْدة وربيعة وتَمِيم وهَمْدان ، وجعل أمر كل تلك

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٧٨ – ٥٨٩) وابن الأثير (٥/٧١ – ٧٧) وابن خلدون (٣ / ١٦٦ – ١٦٩) وانظر خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٦) .

(٢) النيل : بلدة في سواد الكوفة غرب (حلة) بني مزيد ، يخرقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٨ / ٣٦٠) .

(٣) العقر : عقر بابل ، غرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/١٦٤–٦٥) .

(٤) سورا : موضع بأرض بابل ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥ / ١٦٨) .

(٥) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان(١/٣٤٠–٣٤٢) وهي مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم .

الأقسام إلى المُفَضّل ، وأحصى ديوان يزيد بن المهلّب مئة ألف وعشرين ألفاً ، فقال : «لوَدِدْت أنّ لي بهم مَنْ بِخُرَاسان من قومي » ، ثم قام في أصحابه وحرّضهم على القتال .

وكان عبدالحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بالنُّخَيْلة ، وشق المياه ، وجعل على أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا إلى ابن المهلّب ، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع سَبْرَة بن عبدالرحمن بن مِخْنَف ؛ ولكنّ مسلمة عزل عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عُقْبَة بن أبي المُعَيْط ، وهوذو الشّامة.

ومن الواضح أن عبد الرحمن لم يكن مسيطراً على الكوفة ، لذلك تسرّب أكثر أهلها إلى ابن المهلّب ، كما لم يكن ذا كفاية قيادية ولا يتحلّى بمزية المبادرة ، وكان ضعيفاً متردداً ، لذلك عزله مسلمة وولّى قائداً متميزاً ، ليضمن قاعدته الأمامية : الكوفة .

وجمع يزيد بن المهلّب رؤوس أصحابه فقال : » قد رأيتُ أن أجمع اثني عشر ألفاً ، فأبعثهم مع أخي محمد بن المهلّب حتى يبيّتوا مسلمة ، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزبُل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته ، وأُمِدّه بالرجال حتى أُصبح ، فاذا أصبحتُ نهضتُ إليهم في الناس فأناجزهم ، فأنى أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » ، فأجابه أحد أصحابه (١) قائلاً : « إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه صلّى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » ، فثنّى على قوله آخر (٢) قائلاً : « صدق ! هكذا ينبغي » . فقال يزيد : « ويحكم ! .....إنهم يخادعونكم ليمكروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه ! إني لقيت بني مروان ، فما لقيتُ منهم أمكر ولا أبعد غدرا من هذه الجرادة الصفراء» ، يعني مسلمة ، فقالوا : « لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » .

وكان مروان بن المهلّب بالبصرة يحثّ الناس على حرب أهل الشّام ، والحسن

---

(١) اسمه : السميذع

(٢) هو ابو رؤية رأس الطائفة المرجئة ، ومعه أصحاب له .

البصري يثبّطهم ، فهدّد مروان الحسنَ بالعقوبة الصارمة وتوعّده ، فقال الحسن : « والله ماأكره أن يكرمني الله بهوانه » (١) ، فقال ناس من أصحابه : « لو أرادك ثم شئتَ لمنعناك » ، فقال لهم : « فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ! آمركم ألاّ يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ! » .

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومَسْلَمَة بن عبدالملك ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر ، بعث مسلمة من يحرق الجسر .

وخرج مسلمة معبئاً(٢) أهل الشام، ثم قرب من ابن المهلّب، ثم عبأ العباس بن الوليد رجاله، وكان مسلمة على الناس قائداً عاما. وعبأ يزيد بن المهلب رجاله أيضاً .

وأُحرق الجسر ، فسطع دخانه وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتد القتال ، فلما رأى الناس الذين مع ابن المهلب الدخان ، وقيل لهم : أُحرق الجسر ، انهزموا ! فقيل ليزيد : قد انهزم الناس ! فقال : «ممّ انهزموا ؟ ! هل كان قتال يُنْهزَمُ من مثله ؟!» ، فقيل له أحرق الجسر فلم يثبت أحد ! فقال : «قَبحَهم الله ! بَقَّ دُخِّنَ عليه فَطار ! » .

وخرج يزيد مع أصحابه المقربين إليه في محاولة لردّ المنهزمين من جيشه، ولكنه أخفق في محاولته .

ونزل يزيد يقاتل ، فجاءه من ينعى إليه أخاه حبيباً الذي قتل في المعركة ، فقال يزيد : « لاخير في العيش بعده ، قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة ، وقد ازددت لها بغضاً ، امضوا قُدُماً » ، فعلموا أنه قد استقتل ، لذلك تسلل عنه من يَكره القتال ، وبقي معه جماعة حسنة ، وهو يتقدم ، فكلما مرّ بخيلٍ كشفها ، أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه .

وأقبل يزيد نحو مسلمة لا يريد غيره، فلما دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب ، فعطفت على يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد ومحمد بن المهلّب.

وكان المُفَضَّل بن المهلب يقاتل أهل الشام وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة

---

(١) يريد بعقوبته وتوعده .

(٢) كانت التعبئة حينذاك : ميمنة وميسرة وقاباً ومقدمة ومؤخرة .

الناس ، وكان كلما حمل على الناس انكشفوا . ولكن أصحابه تخلوا عنه هاربين فقيل له : ما تصنع ها هنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل ؟!

ولما تفرّق الناس عنه ، مضى إلى (واسِط) ، ولم يكن في العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه .

وأسرَ مسلمة نحو ثلاث مئة أسير ، فسرّحهم إلى الكوفة ، فحبسوا بها . وجاء كتاب يزيد بن عبدالملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والي الكوفة يأمره بضرب رقاب الأسرى ، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى ، فجاء رسول بكتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى ، ثم أقبل مسلمة حتى نزل (الحِيْرَة). (١)

ولما أتت هزيمة يزيد إلى (واسِط) ، غادرها آل المهلّب إلى البصرة ، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لجّوا في البحر ، فلما كانوا بجبال (كَرْمَان) (٢) خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم واموالهم على الدّواب ، وكان المقدّم عليهم المُفَضّل بن المهلّب .

وكان بكرامان فاول كثيرة اجتمعوا الى المفضّل ، فبعث مسلمة قوات من أصحابه ، فقاتلوا فلول المفضّل وانتصروا عليهم وكبّدوهم خسائر فادحة بالأرواح .

ومضى آل المهلّب ومَنْ معهم إلى (قَنْدابِيْل) (٣) ، فطاردهم أصحاب مسلمة ، فتفرق الناس عن آل المهلّب ، ولكن آل المهلّب تقدّموا بأسيافهم فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم منهم : المفضّل ، وعبدالملك ، وزياد ، ومروان بنو المهلّب وثلاثة من أبنائهم ، فبعث مسلمة برءوسهم إلى يزيد بن عبدالملك .

وحين بلغ يزيد بن عبدالملك خبر مقتل يزيد بن المهلّب وكثير من آل المهلّب سرّه هذا النصر سروراً عظيماً (٤) .

---

(١) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة اميال من الكوفة ، على موضع يقال له النجف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٢) ، والنجف اليوم قريبة من الكوفة ، وفيها مرقد الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة في ايران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤١/٧) والمسالك والممالك للاصطخري (٩٧ – ١٠٠) .

(٣) قندابيل : مدينة بالسند ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ١٦٧) .

(٤) انظر التفاصيل في الطبري (٦ / ٥٩٠ – ٦٠٤) وابن الأثير (٥ / ٧٧ – ٨٩) وابن خلدون –

وهكذا انتصر مسلمة على يزيد بن المهلّب وآل بيته ، فخدم الدولة خدمة لا تقدّر بقضائه على ثورة يزيد الذي خلع يزيد بن عبد الملك وقاد أخطر ثورة هدّدت كيان الأمويين

ومن الأنصاف أن نذكر أن يزيد بن المهلّب كان قائداً فذاً وإدارياً حازماً ، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلّب ، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه ، أفراده مرتزقة كل همهم كسب المال ، لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته ولم يكن يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة ، وأردك في أول المعركة بأنه خسرها ، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه ، ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام .

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثرهم من المرتزقة ، ولكنهم كانوا ملتزمين ، أما جيش يزيد بن المهلّب فكان من المرتزقة غير الملتزمين ، لذلك كان جيش مسلمة يتحلى بارادة القتال فانتصر ، وكان جيش يزيد لا يتحلى بهذه المزيّة فانهزم .

وقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد بن المهلّب وبنى المهلب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وولاتها ، وهي خسارة كبيرة بلامراء (١) .

وأدهي من ذلك وأمرّ ، أن الاقتتال الذي نشب بين الأخوة أدىّ الى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية في العراق قاعدة الفتح الأسلامي الرئيسة في المشرق الأسلامي ، وفي فارس قاعدة الفتح الأسلامي المتقدمة ، مما أدى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح إلى الاقتتال فيما بينهم ، فأصبحت طاقاتهم موّجهة إلى أنفسهم بدلاً من توجيهها إلى أعدائهم ، فانحسر مدّ الفتح وتقلّص نفوذ الدولة في العراق وفارس وفي السند والأفغان وفيما وراء النهر .

- (٣ / ١٦٦ - ١٧٢) وانظر المسعودي (٣ / ١٩٩ - ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠ - ١٦) والمعارف (٤٠٠) .

(١) في العبر (١/١٢٤) : أن يزيد كان ممدحاً كثير الغزو والفتوح ، وانظر أيضاً شذرات الذهب (١/١٢٤) وفي يزيد وآل المهلب يقول الشاعر :

نزلت على آل المهلب شاتياً ... غريباً عن الاوطان في زمن المحل
فما زال بي احسانهم وافتقادهم ... وبرهم حتى حسبتهم أهلي

انظر مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (١/٢٠١-٢٠٢) ، وفي النجوم الزاهرة (١ / ٢٦٩) ، قال الفرزدق :

إن المهالبة الكرام تحملوا ... دفع المكاره عن ذوى المكروه
زانوا قديمهم بحسن حديثهم ... وكريم أخلاق بحسن وجوه

وانتهز هذه الفرصة السّانحة العباسيّون للقضاء على الأمويين ، وأصبح دعاة بني العباس يسرحون ويمرحون في بلاد فارس بخاصة بحرّية كاملة دون رقيب فعال وحسيب مؤثّر .

لذلك كان انتصار مسلمة في هذا الاقتتال تعبوياً ، ولكنه كان هزيمة سَوْقِيّة (استراتيجيّة) على المدى البعيد .

والانتصار التعبوي لاقيمة له بالنسبة للهزيمة السّوْقِيّة كما هو معروف .

ج . ترصين الجبهة الشرقيّة :

لما فرغ مسلمة بن عبدالملك من حرب يزيد بن المهلّب ، جمع له أخوه يزيد ابن عبدالملك ولاية الكوفة والبصرة وخُراسان وذلك سنة اثنتين ومئة الهجرية (١)

كان مهمة مسلمة صعبة ، لتناحر القبائل ونشوب العداوة بينها ، وضياع الأمن والاستقرار ، مما أدىّ إلى تّوقف الفتح وتهديد مصير الفاتحين في البلاد المفتوحة في بلاد فارس والسند وما وراء النهر .

لذلك عمل مسلمة على اختيار الرجال الذين يثق بهم ويعتمد على كفاياتهم ، لغرض معاونته في ترصين الجبهة الشرقية للدولة ، فأقرّ محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ابن أبي مُعَيْط على الكوفة لأنه سيطر على الكوفة في أيام نشوب القتال بين مسلمة ويزيد بن المهلب سيطرة كاملة ، وأمد مسلمة بالرجال والمواد التموينيّة ، وحمى خطوط مواصلاته ، وجعل من الكوفة قاعدة متقدمة لقوات مسلمة المقاتلة .

وكان قد قام بأمر البصرة بعد آل المهلّب شبيب بن الحارث التميمي ، فبعث عليها مسلمةُ عبدالرحمن بن سليمان الكلبيّ ، وعلى شرطتها وأحداثها عمرو بن يزيد التميمي (٢) .

والظاهر أنّ عبدالرحمن بن سليمان الكلبّي كان والياً ناقماً منتقما ، لأنه أراد استعراض أهل البصرة فيقتلهم انتقاماً منهم لميلهم إلى آل المهلّب وعطفهم عليهم ومعاونتهم لهم مادياً ومعنوياً ، فنهاه عمرو بن يزيد التميميّ ، وكتب إلى مسلمة

(١) الطبري (٦٠٤/٦) وابن الأثير (٨٩/٥) وانظر المعارف (٥٧١) وفيه ان مسلمة كان بين أول من جمع له المصران : الكوفة والبصرة وانظر التنبيه والاشراف (٢٧٧ – ٢٧٨) .

(٢) في ابن الأثير (٨٩/٥) : ورد اسمه عمرو ، وفي الطبري (٦٠٤/٦) ورد اسمه عمر .

بالخبر ، فعزله وولىّ البصرة عبدَ الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، وأقرّ عمرو بن يزيد التميميّ على الشُّرَط والأحداث (١) .

لقد كان مسلمة بعيد النظر حقاً ، لذلك كان يحاول تضميد الجروح لا تعميقها ، فلم يرض عن أسلوب عامله على البصرة باتجاهه إلى الصرامة والانتقام ، فقد كانت الجروح غائرة وهي ليست بحاجة إلى تعميق ، فعزل عامله فوراً وبعث مكانه عاملاً جديداً .

واستعمل مسلمة على خُراسان سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أُميّة وهو الذي يقال له : سعيد خُذَيْنَة (٢) ، وكان سعيد زوج ابنة مسلمة . وقد غزا سعيد الترك وعبر النهر وغزا (الصُّغْدَ) (٣) ، وأراد السيطرة على تلك المناطق وترصين قواعد الفتح المتقدمة ، ولكن نجاحه كان محدوداً ، لأن كفايته لم تكن بالمستوى المطلوب (٤) .

ولم يكد مسلمة يمضي بضعة أشهر على العراق وخُراسان (٥) ، حتى عزله أخوه يزيد بن عبدالملك سنة اثنتين ومئة الهجرية .

وكان سبب عزله أنه ولي العراق وخراسان ، فلم يرفع من الخراج شيئاً إلى يزيد بن عبدالملك . واستحيا يزيد أن يطالبه أو يحاسبه ، كما استحيا أن يعزله ، فكتب إليه : « استخلف على عملك وأقْبِل » .

ولم يلبث مسلمة حتى أتاه عزله بعمر بن هُبَيْرَة الفزاريّ الذي تولىّ مكانه العراق وخراسان ، فعزل عمّاله واستعمل الغلظة عليهم ، فقال الفرزدق :

راحت بمسلمة البغال عشيّـــة فارعَىْ فَزارة لاَ هنَاكِ المرتَـــعُ

---

(١) الطبري (٦/٦٠٤ – ٦٠٥) وابن الأثير (٥/٨٩) .

(٢) خذينة بالفارسية هي الدهقانة ربة البيت ، انظر ابن الأثير (٥/٩٠) ، وهو من ابناء عمومة مسلمة يلتقي نسبهما بالحكم والد مروان بن الحكم ، انظر انساب الأشراف (١/١٦١) وفتوح البلدان (٦٠٠) .

(٣) الصغد : كورة عجيبة قصبتها سمرقند ، وقيل هما صغدان : صغد سمرقند وصغد بخارى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٢) .

(٤) الطبري (٦٠٥ – ٦١٥) وابن الأثير (٥/٩٠ – ٩٧) ، وفي انساب الاشراف (٣/١٦٢) ان اهل خراسان شكوا خذينة فعزله .

(٥) المعارف (٣٥٨) ، وفي العيون والحدائق (٧٥) : انه بقي ثمانية اشهر ، وقيل ستة أشهر .

عُزِلَ ابنُ بِشْر وابن عمرو قبله وأخو هَراة لمثلها يتوقّـــــعُ

يعني بابن بشر : عبدالملك بن بِشْر بن مروان بن الحكم ، وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط ذا الشّامة ، وبأخي (هَراة) سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أُمية (١) ، وهم عمال مسلمة .

والذي يبدو أنّ يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مسلمة ، لأنه لا يستطيع السيطرة عليه في تصرفه بالأموال وفي توجيهه سياسة الدولة في تلك البلاد الشاسعة الغنية ، فأراد أن يولّي مَنْ يستطيع السيطرة عليه ويوجّهه كما يريد . (٢)

كما أنّ خراج العراق وفارس كان مصدراً غنياً من مصادر تمويل الدولة ، فلا يمكن السكوت عمن يتصرف به كما يشاء دون قيد أو شرط .

ولم يكن مسلمة ممن يَضَعُ أموال المسلمين في غير مواضعها ، فمن المحتمل أن يكون الخراج في تلك السنة قد تأثر بظروف الحرب في العراق وظروف التسيّب في خراسان ، مما أدى إلى ضعفه وقلّة موارده ، خاصة وأن جبايته في تلك الظروف مع تغيير الولاة ، من موالين لبني المهلّب إلى موالين لبني أميّة ، وقتل قسم من أولئك الولاة ، ضيّع المسئولية وأدى إلى ذهاب الأموال بدداً .

فلما تولّى مسلمة ، كان عليه أن ينفق ماجباه في التعمير وتأليف القلوب وتقوية جيشه ، لذلك لم يبق في يديه ما يبعث به إلى الخليفة في الشام ، ولو بقي منه شيء لفعل .

لقد استفاد يزيد بن عبدالملك من أخيه مسلمة في أيام الشدة والحرب ، وبعد أن استقرت الأمور أو كادت تخلّى عنه في أيام الرخاء والسّلم .

ولم يكن بمقدور أحد من رجال يزيد ، أن ينهض بمهمة القضاء على ثورة

---

(١) الطبري (٦١٥/٦) وابن الأثير (٩٧/٥ – ٩٨) ، وفيهما رواية اخرى عن سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان لا تتفق مع المنطق ولا يصدقها العقل ، وانظر المعارف (٣٦٤) عن تولية عمر ابن هبيرة العراقين ، وانظر انساب الاشراف (١٨١/٣) حول عزل عبد الملك بن بشر بن مروان ابن الحكم وشعر الفرزدق .

(٢) في العيون والحدائق (٧٥) : قدح فيه عند يزيد ، وقالوا : إنه غير مأمون على الخراج فعزله .. . انتهى .

يقصد : قدح في مسلمة عند الخليفة يزيد بن عبد الملك .

يزيد بن المهلّب ، وهي ثورة عارمة هدّدت الدولة تهديداً خطيراً جداً ، ولو كان بجعبة يزيد بن عبدالملك من يستطيع النهوض بمثل هذه المهمّة الصعبة ، لرمى بهابن المهلّب دون تردّد .

ولم يكن بمقدور كل قائد أن يسدّ ثغرة في قلب الدولة أيام الحرب كما فعل مسلمة ، فبمجرّد قدومه على رأس جيشه إلى العراق ، جعل معنويات جيش ابن المهلّب تنهار ويتخلّى عنه رجاله ، كما جعل معنويات رجاله ترتفع ، وازداد الاقبال عليه.

ولكن بمقدور كثير من الولاة أن يحلّوا محلّ مسلمة في أيام السّلام .

إن مسلمة خلق ليكون غازياً ، ولم يخلق ليكون واليا .

ويظهر أنّ يزيد بن عبدالملك تخلى عن مسلمة واليا ، ولكنه لم يتخل عنه ناصحاً ومستشاراً ، فأستبقاه إلى جانبه في (دمشق) يستنصحه ويستشيره في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها ، فكان له نعم الناصح المخلص والمستشار الأمين .

ومما يدل على ثقة يزيد بن عبدالملك بمسلمة ، أنه بايع لهشام بن عبدالملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبدالملك باستشارة مسلمة (١) .

وحين عزل يزيد عبدالرحمن بن الضحّاك عن المدينة ومكة لغضبه عليه ، لم يجد ملجأ يلجأ اليه غير مسلمة الذي أجاره وكلم أخاه يزيد بن عبدالملك ليعفو عنه. (٢)

وكان يزيد بن عبدالملك يحبّ جارية اسمها : (حَبَابة) ، فلما توفيت وجد عليها وجداً شديداً ، وخرج مشيعاً جنازتها ومعه أخوه مسلمة ليسليه ويعزيه . وقيل إن يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشي ، فأمر مسلمة أن يصلي عليها ، وقيل : منعه مسلمة من الصلاة عليها لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه به (٣) ومكث يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس ، أشار عليه مسلمة بذلك ، وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم (٤) .

---

(١) ابن الأثير (٥/٩١) وابن خلدون (٣/١٧٤) والأغاني (٧ / ٢) .

(٢) ابن الأثير (٥/١١٦) وابن خلدون (٣/١٨٢) ، وقد أجار أيضاً عمر بن هبيرة على يزيد ، فقبل شفاعته ، انظر العيون والحدائق (٨٥) .

(٣) ابن الأثير (٥/١٢٠) والعيون والحدائق (٧٨) .

(٤) ابن الأثير (٥/١٢١) وتاريخ الموصل (٢٠) .

ولما مات يزيد سنة خمس ومئة الهجرية ، صلى عليه مسلمة (١) ، وهذا يدل يدل على أنه كان أقرب المقربين إلى يزيد حتى توفاه الله (٢) .

لقد استأثر يزيد بمسلمة لرجاحة عقله واتزانه وإخلاصه له وللدولة ، ولم يعزله عن العراق لأنه كان يخشاه ويتوقع منه شرا، إذ ليس من شأن مسلمة ولا من سماته إشعال نار الفتن وضرب إخوته وأهل بيته من الخلف وتفريق صفوف المسلمين .

٣ – في إرْمِيْنِيَة (٣) وأذْرَبِيْجَان (٤)

وفي سنة سبع ومئة الهجرية (٧٢٥ م) ، استعمل هشامُ بن عبدالملك أخاه مسلمة على إرْمِيْنِيَة وأذْرَبِيجان خلفاً للجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ ، فاستعمل

---

(١) ابن الأثير (٥/١٢٠) .

(٢) لقد ذكرت هذه الحوادث لافند ما زعمه أحد المؤلفين في كتابه : مسلمة بن عبد الملك (٥٦) ما نصه : «ويبدو ان يزيد بن عبد الملك ، كان يخشى مسلمة ويتوقع منه شراً، إذ وجدناه يعزله عن العراقين ومما يدل على خوف يزيد من مسلمة وحذره الشديد منه ،أنه لم يستعمل مسلمة على ولاية طيلة خلافته . . . » ولا سند لهذا الادعاء ولا دليل عليه .

(٣) إرمينية : بكسر اوله ويفتح ، وسكون ثانيه ، وكسر الميم ، وياء ساكنة ، وكسر النون ،وياء خفيفة ، مفتوحة ، اسم صقع عظيم واسع ، وقيل : هما ارمينيتان : الكبرى والصغرى ،وحدهما من برذعة الى باب الابواب (دربند) من الجهة الاخرى ، الى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب السرير . وقيل : ارمينية الكبرى خلاط ونواحيها وارمينية الصغرى تفليس ونواحيها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٠٣ – ٣٠٦) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧) ومختصر كتاب البلدان (٢٨٦ – ٣٠١) والمسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٢ – ١٢٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤) وكتاب الاقاليم (٧٩) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والاعلاق النفيسة (١٠٦) . وارمينية اليوم في الجزء المتاخم لأيران – تركيا – الاتحاد السوفياتي ، وهي في هذه البلاد جميعاً واهلها أرمن .

(٤) أذربيجان : كلمة اذربيجان في الفارسية معناها أرض النار أو معابد النار ، وقد اطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك.واذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة ، والغالب عليها الجبال ، واشهر مدنها تبريز وهي قصبتها ، وأكبر مدينة فيها أردبيل ، ومن مدنها : المراغة وارمية وخوي وسلماس ومرند وموقا . . . الخ . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١ /١٥٩ – ١٦١) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤ – ٣٧٨) وكتاب الأقاليم (٧٩ – ٨٥) والأعلاق النفيسة (١٠٦) والبلدان لليعقوبي (١٠٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (١١٨ – ١٢١) وتقويم البلدان (٣٨٦ – ٤٠٧) ومختصر تاريخ البلدان (٢٨٤ – ٢٨٦) ، واذربيجان اليوم في ايران والاتحاد السوفياتي ، بينهما الحدود التي تفصل بين البلدين ، واحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي هي : جمهورية أذربيجان ، وهي القسم الذي ضمن حدوده من هذه البلاد الشاسعة .

مسلمة الحارثَ بن عمرو الطائي ، فافتتح رستاقاً (١) وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً (٢).

ومن المعروف أن تلك المناطق قد فتحها عُتْبَة بن فَرْقد السُلَمي (٣) و بُكَيْر ابن عبدالله اللَيْثي (٤) وسراقة بن عمرو ذو النور (٥) في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فيكون دور مسلمة وقائده في هذا المجال هو : القضاء على اضطرابات داخلية ، وتوطيد أركان الأمن ، في منطقة من المناطق المفتوحة .

وفي سنة ثمان ومئة الهجرية (٧٢٦ م) ، غزا مسلمة الرُّوم مما يلي (الجزيرة) (٦) ، ففتح (قَيْسَارِيَة) (٧) وهي مدينة مشهورة (٨) .

وفي سنة تسع ومئة الهجرية (٧٢٧ م) ، غزا مسلمة الترك (٩) من ناحية

---

(١) الرستاق : كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة و بغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، وهو اخص من الكورة والاستان ، انظر معجم البلدان (١/٣٧) ، والكورة : اسم فارسي بحت يقع عل قسم من اقسام الاستان ، وقد استعارتها العرب و جعلتها إسماً للاستان ، فالكورة والاستان واحد . والكورة : كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة او مدينة او نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة ، لقولهم دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته : كورة دارا بجرد ، ونحو ذلك نهر الملك ، فانه نهر عظيم مخرجه من الفرات و يصب في دجلة عليه نحو ثلاث مئة قرية ، و يقال لذلك جميعه : كورة نهر الملك ، انظر معجم البلدان (١/٣٦) . وأما الاستان والكورة واحد ، انظر معجم البلدان (١/٣٧) .

(٢) ابن الأثير (٥/١٣٧ – ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ ابن خليفة (٢/٣٥٠) .

(٣) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤١٥ – ٤٢٢) .

(٤) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح فارس (٢٠٥ – ٢٠٨) .

(٥) انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح فارس (٢٠٩ – ٢١٣) .

(٦) الجزيرة : هي جزيرة ابن عمر .

(٧) قيسارية : مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم تقع مدينة سيواس في شرقيها و ينتقل منها الى قونية ، انظر معجم البلدان (٧/١٩٥) وتقويم البلدان (٣٨٢ – ٣٨٣) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٦٤ – ٣٦٥) .

(٨) ابن الأثير (٥/١٤٠) ، وفي العبر (١/١٣١) وشذرات الذهب (١/١٣٤) : أن قيسارية فتحها مسلمة سنة سبع ومئة الهجرية في رمضان عنوة ، وكذلك في تاريخ الموصل (٢٦) وانظر النجوم الزاهرة (١/٢٦٢)

(٩) في تاريخ الموصل (٢٩) : أنه غزا الخزر لا الترك .

(أَذْرَبِيْجان) ، فغنم وسبى وعاد سالماً (١) .

وهذه غزوة أخرى من غزوات توطيد سيطرة الدولة في البلاد المفتوحة واشاعة الأمن والاستقرار في (أَذْربيْجان) الجبلية ذات البرد القارس .

وفي سنة عشر ومئة الهجرية (٧٢٨ م) ، غزا مسلمة الترك من باب (اللان) (٢) ، فلقي (خاقان) (٣) في جموعه ، فاقتتلوا قريباً من شهر ، وأصابهم مطر شديد ، فانهزم خاقان ، ورجع مسلمة على مسلك (ذي القَرْنَيْن) (٤) منتصراً (٥) . وهذه الغزوة تسمى غزوة (الطِّين) ، وكانت ملحمة عظيمة في سابع جُمادى الآخرة من هذه السنة (٦) ، ويبدو انها سميت غزوة (الطِّين) لهطول أمطار غزيرة جعلت ساحة المعركة أوحالاً

وفي سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية (٧٢٨ م) استعمل هشام بن عبد الملك ، هشام الجرّاح بن عبدالله الحَكَمِيّ على إرمينيَة وعزل أخاه مسلمة (٧) ، فدخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية (تَفْليس) (٨) ، ففتح مدينتهم (البيضاء) (٩) وانصرف سالماً ، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الاسلام ، وكان ذلك سبب

---

(١) ابن الأثير (٥/١٤٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الاسلام (٤/٣٠٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٢) .

(٢) اللان : بلاد واسعة في طرف ارمينية قرب (باب الابواب) مجاورون للخزر ، انظر معجم البلدان (٧/٣١٦) وتقويم البلدان (٤٠٤) .

(٣) خاقان : لقب ملك الترك ، ومعناه : الملك .

(٤) ذو القرنين : أحد الفاتحين العظام ، ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة الكهف ، واختلف المؤرخون في اسمه الحقيقي وتاريخ حياته ، وهو الذي بنى سد الصين المشهور ، ويسمى سد يأجوج ومأجوج ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٦٢ – ١٦٤) .

(٥) ابن الأثير (٥ / ١٥٥) .

(٦) النجوم الزاهرة (١ / ٢٦٧) وتاريخ الاسلام (٤ / ٣٠٢) .

(٧) ابن الأثير (٥/١٥٨) والنجوم الزاهرة (١/٢٧٠) وابن خلدون (٣/٢٩٩) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٣)

(٨) تفليس : بلد بأرمينية الأولى ، وبعض يقول بأران ، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب ، وهي مدينة قديمة ، انظر معجم البلدان (٢/٣٩٦) وتقويم البلدان (٤٠٢ – ٤٠٣) وكتاب صورة الأرض (٢٩٢ – ٢٩٤) .

(٩) البيضاء : مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٣٣٦) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٧٧ – ٧٨) .

استشهاد الجرّاح (١) سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) ، وكان الجرّاح خيرّاً فاضلاً من عمال عمر بن عبدالعزيز ، ورثاه كثير من الشعراء (٢) .

ولا يذكر المؤرخون سبباً لعزل مسلمة، ويبدو أنّ مسلمة كان في (دمشق) سنة إحدى عشرة ومئة الهجرية ، فلم يَغْزُ في تلك السنة ، كما أن الترك سارت إلى (إذربيجان) فلقيهم الحارث بن عمرو فهزمهم (٣) ، مما يدل على أنّ مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال ، فقاد المعركة قائد من قادته الذين يعملون باءمرته ، وهذا يدل على أن مسلمة كان في (دمشق) لأسباب قاهرة ، وقد يكون مريضاً ، لأنّ هشام بن عبد الملك لايمكن أن يستغني عن يده اليمنى في تلك المناطق النائية ، كما لا يمكن أن يعزله بدون رغبته إلاّ لأسباب قاهرة .

ولو أنّ هشام بن عبدالملك عزله لريبة أو لأنه قصّر بواجبه، لما أعاده إلى منصبه سنة اثنتي عشرة ومئة الهجرية (٧٢٩ م) والياً على (إرْمِيْنية) و (أذربيجان) ، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك في شتاء شديد حتى جاء (الباب) (٤) في آثارهم (٥)

وثبت مسلمة لمدينة (الباب) ففتحها ، وكان في قلعتها ألف رجل من بيوتات الخزر ، فحاصرهم ورماهم بالحجارة ، ثم رماهم بقنابل من الحجارة ، ولكنه لم ينتفع بذلك ، فعمد إلى العين التي يجري منها الماء إلى صهريجهم ، فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والمواد الأخرى التي لا ينتفع بها الناس ، فلم يمكث ماؤهم إلاّ ليلة حتى دوّد وأنتن وفسد ، فلما جنّ عليهم اللّيل هربوا وأخلوا القلعة . وأسكن مدينة (الباب) أربعين ألفاً من أهل الشّام على العَطاء ، وبنى هُرْياً للطعام وهُرْياً للشعير وخزانة للسّلاح ، وأمر بكبس الصهريج ورمّ المدينة (٦) .

(١) ابن الأثير (٥ / ١٥٨) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧٠) .
(٢) ابن الأثير (٥ / ١٥٩) وابن خلدون (٣ / ٢٩٩) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧١) وتاريخ الموصل (٢٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٤) .
(٣) ابن الأثير (٥ / ١٥٨) .
(٤) الباب : وهي باب الابواب (دربند) ، ميناء على بحر الخزر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢ / ٩) وتقويم البلدان (٤٠٤ — ٤٠٥) .
(٥) ابن الأثير (٥ / ١٦٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٧) .
(٦) فتوح البلدان (٢٩١) .

وفي سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية (٧٣٠ م) ، فرّق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ، ودان له من وراء جبال (بَلَنْجَر) (١) ، وقتل ابن خاقان (٢) ؛ فاجتمعت تلك الأمم جميعها : الخزر وغيرهم عليه في جمع لا يعلم عددهم إلاّ الله ،وقد جاوز مسلمة (بلنجر) ، فلما بلغه خبرهم ، أمر أصحابه ، فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم ، وعاد وعسكره جريدة، وقدّم الضعفاء وأخّر الشجعان ، وطووا المراحل كل مرحلتين في مرحلة ، حتى وصل إلى (الباب) في آخر رمق (٣) ، فأكمل بناء (الباب) (٤) وحصّنها .

وفي سنة اربع عشرة ومئةالهجرية(٧٣١ م)استعمل هشام بن عبدالملك، مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على(الجزيرة) و(أذربيجان) و(إرمينية) وعزل مسلمة (٥) ، فأقبل بعدما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبنى (الباب) (٦) .

فما هو سبب عزله ؟

لقد كان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم — وهو آخر خلفاء بني أميّة — مع عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر ، فلما عاد مسلمة إلى (الباب) سار مروان إلى هشام بن عبدالملك ، فلم يشعر به حتى دخل عليه ، فسأله عن سبب قدومه ، فقال : «ضِقْتُ ذرعاً بما أذكره، ولم أر مَنْ يحمله غيري !» قال ! «وما هو ؟» قال مروان : « قد كان من دخول الخزر الى بلاد الاسلام وقتْل الجرّاح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين، ثمّ رأى أمير المؤمنين أن يوجّه أخاه مسلمة بن عبدالملك إليهم ، فوالله ما وطئ من بلادهم إلا أدناها ، ثمّ إنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك ، فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة

---

(١) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٨/٢).
(٢) في المعارف (٣٦٥) : أنه قتل خاقان ملك الترك .
(٣) ابن الأثير (٥ / ١٧٣ — ١٧٤) .
(٤) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢ / ٣٥٩) .
(٥) ابن الأثير (٥ / ١٧٧) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧٣) وتاريخ الموصل (٣٤) والعبر(١٤١/١) وشذرات الذهب (١٤٧/١) وابن خلدون (٣ / ٣٠٠) .
(٦) ابن الأثير (١٧٩/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢) .

أشهر فاستعدّ القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قصاراه السّلامة ،وقـــد أردتُ أن تأذن لي في غزوة أُذهب فيها عنّا العـــار وأنتقم من العدو».قال هشام : «قد أذنتُ لك»،قال : «وتمدّني بمئة وعشرين ألف مقاتل؟» ، قال : « قد فعلتُ » ، قال : « وتكتم هذا الأمر عن كل واحد ؟ » قال : « قد فعلتُ ، واستعملتك على إرمينية » (١)

وقد خرج مروان مختفياً عن مسلمة إلى هشام (٢) ، أي أنه عاد إلى الشام من الجبهة الأمامية دون إذن مسلمة ودون علمه !!!

وفي رواية أخرى : لما أقبل مسلمة ، زحفت إليه الخزر ،فلم يشعر مسلمة حتى طلعوا عليه ، فقاتلهم وحال بينهم اللّيل ، وبات المسلمون يحيّون ، وانصرف الخزر وقفل مسلمة واستخلف مروان بن محمد ،وذلك كلّه سنة ثلاث عشرة ومئة الهجرية(٣)

والتناقض بين الروايتين واضح ، فان مسلمة عاد بعد أن قتل خاقان وأحكم ما هناك (٤) ، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً . كما أنّ مسلمة تغلغل في بلاد الخزر ، فكيف لم يطأ من بلادهم إلاّ أدناها ؟ !

أما أنه كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر ، حتى استعد الخزر وحشدوا ،فليس ذلك معقولا ، إذ لا يمكن أن يتصرف أي قائد هذا التصرّف ، فينذر عدوّه بالحرب ، ويفسح له المجال للاستعداد ، ثم يتراخى عن العدو ثلاثة أشهر !!

أما أنّ مسلمة لم تكن له نكاية بالخزر ، فهذا ما يدحضه سير القتال ، وما أنجزه مسلمة في الحرب .

يبقى ماورد عن خروج مروان بن محمد مختفياً من مسلمة إلى هشام بن عبدالملك، فلو كان مروان مبيتاً الوشاية بابن عمه مسلمة ، لاستأذنه في القفول إلى دمشق لسبب

(١) ابن الأثير (٥/١٧٧) ، وابن خلدون (٣/١٩٧)
(٢) ابن خلدون (٣/١٩٧) .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٩) .
(٤) ابن الأثير (٥ / ١٧٩) .

من الأسباب ثم يعود أدراجه إلى دمشق ، إذ ليس من المعقول أن يعود من (الباب) إلى دمشق ، وهو قريب القربى من مسلمة ، فيبقى أمر عودته سراً مكتوماً على مسلمة ولا يعرف مسلمة عن رحيله شيئاً ! !

كما أنّ العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة ، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى، تجعل من الصعب على مروان أن يشي بمسلمة، وتجعل من الصّعب على هشام أن يصدّق وشاية مروان، خاصة وأنها تناقض الحقائق الناصعة ولا يصدقها عاقل .

كل ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثانية ، وهي أنّ مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام ، قفل راجعاً إلى دمشق ، واستخلف مروان على ولايته .

ويبدو أنّ مسلمة بعد عودته، اقترح على هشام أن يولي مروان مكانه، فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة .

ولم يكن هشام ليعزل مَسْلمة الذي كان الرجل الثاني في الدولة الأموية ، وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته ، لأن كفايته فوق الشبهات ، ولأن هشام بن عبدالملك ولاه لكفايته حتى يعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .

ومما يلفت النظر أنّ مسلمة لم يُغْزُ ولم يتول ولاية منذ سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، حتى توفّاه الله سنة عشرين ومئة الهجريّة أو سنة إحدى وعشرين ومئة الهجرية .

وغيابه عن تحمل أعباء الجهاد ، وهو مَنْ هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الفرض — ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ .

وإذا كان بالامكان أن يتخلى عن تولي المناصب الادارية ، فليس بالامكان أن يتخلّى عن تولي المناصب القيادية ، وهو الذي حمل السيف قائداً ولم يتجاوز العشرين من عمره وقضى كل سني حياته في ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومئة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلى عن المناصب القيادية لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته .

والذي يبدو أن تخليه عن القيادة مكرهاً، كان لاعتلال صحته وإصابته بالمرض، ومن المعروف أنّ من مزايا القائد المتميّز تمتعه بالقابلية البدنية المتميزة ، ليستطيع تحمل مشاق التنقّل وأعباء الجهاد ، وإلا فليس هناك ما يسوّغ ابتعاده عن ساحات الوغى غير المرض الذي أقعده عن قيادة الجيوش .

وعلى كل حال ، فقد أدى ما عليه من واجبات قياديّة وإدارية بما فيه الكفاية، وخدم الدولة في ميداني القيادة والادارة على حد سواء بشرف وأمانة وإخلاص وقوة .

★ ★ ★

يتبـــع

محمود شيت خطاب